التواصل
مجلة علمية في اللغات، العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد: 32 العدد: 03 تاريخ: جوان 2026

المصطلح الصوفي بين الدلالة المعجمية والتجربة الذوقية: مقاربة نقدية تحليلية

فاضل نعمان (*) جامعة باجي مختار – عنابة، ص.ب. رقم 12 عنابة 23000، كلية الآداب واللّغات، قسم اللّغة العربية وآدابها. fadel.naamane@univ-annaba.dz

تاريخ الإيداع: 2026/05/10 **تاريخ القبول:** 2026/06/18 **تاريخ النشر:** 2026/06/30

ملخص

يُقارب هذا البحث المصطلح الصوفي بوصفه بنية دلالية مركّبة تتجاوز حدود المعجم نحو أفق التجربة الروحية. تتولد الدلالة عبر الرمز والاستعارة والإشارة في تفاعل اللغة مع الممارسة الذوقية. المنهج النقدي التأويلي، المستند إلى العرفان الصوفي وإلى اللسانيات العرفانية الحديثة، يكشف قصور التعريفات المعجمية. المصطلح يكتسب كثافة وجودية وعاطفية لا تُدرك إلا في سياق التجربة. تكمن أهمية الدراسة في إبراز خصوصية المصطلح الصوفي كأداة معرفية وروحية، وكشف إمكانات اللغة في التعبير عن التجربة الإنسانية العميقة. كما يفتح البحث آفاقًا جديدة أمام الدراسات اللسانية والنقدية لفهم العلاقة المتوترة بين اللغة والتجربة. ويؤكد على ضرورة الجمع بين التحليل اللغوي والتأويل الذوقي لضمان قراءة علمية متوازنة للنصوص الصوفية. وفي الختام، يطرح البحث سؤالًا مفتوحًا حول حدود اللغة في احتضان التجربة الروحية، بما يترك المجال لتأويلات لاحقة.

الكلمات المفاتيح: تجربة صوفية، رمز، تأويل، عرفان صوفي، تصوف، محبة، دلالة.

The Sufi Term: Between Meaning and Experiencee

Abstract

This study interrogates the Sufi term as a semantic constellation where language collides with spiritual practice. Meaning surfaces through metaphor, allusion, and symbolic resonance, inseparable from lived mystical experience. The analytical lens combines Sufi gnosis with Lakoff and Johnson's cognitive framework, exposing the inadequacy of dictionary definitions. The term acquires existential and affective density only within the horizon of experience. Hence the necessity of coupling linguistic analysis with experiential interpretation, a methodological tension that resists reduction. The contribution clarifies Sufi terminology as both spiritual and epistemological, while opening a critical path for inquiry.

Keywords: Sufi experience, symbol, interpretation, Sufi gnosis, Sufism, love, meaning.

(*) **المؤلف المرسل:** فاضل نعمان، fadel.naamane@univ-annaba.dz

الرقم التسلسلي للمعيار الدولي (ISSN): 1111-4932، الرقم (EISSN): 2352-9865

توطئة (مقدّمة):

المصطلحات مفاتيح قراءة اللغة؛ هذه القراءة ارتبطت عبر التاريخ بالمعاني التي يطرحها المؤلف. وقد اختلفت النصوص حسب ما تحمله من معان واتّجاهات يطرحها اللّغوي والأديب والعالم كل حسب ما يهدف إليه في مستوياتها الصّوتية والصّرفية والنّحوية والدّلالية المتنوعة بأساليبها، وطريقة طرحها الّتي يتميز بها كلّ علم من العلوم عن غيره بمصطلحاته الّتي تحمل قيما إنسانية تعبّر عن فكر. لذلك أصبح تطور العلم مرتبطا بتطور مصطلحاته، يقول عبد السّلام المسدي: "إنّ الوزن المعرفي في كلّ علم رهين بمصطلحاته، لذلك نسميها أدواته الفعالة "... (المسدي، 1984، 12). والمصطلح هو "اتفاق طائفة مخصوصة على وضع شيء" (البستاني، 1980، ص 348).

نظرًا لأهميّة المصطلح في فهم اللّغة، كان موضوع هذا المقال: (المصطلح الصّوفي بين الدّلالة والتّجربة). الذي نحاول فيه إبراز الخلاف الحاصل بين المعجم والذوق الذي يجيب عن إشكالية تمييز المفهوم المعجمي عن المفهوم الوجداني، حيث ينقل الصوفية معانيَ وجدانية في قالب لغوي (شعري أو نثري) من خلال التعبير عن هذه المعاني الروحية بمصطلحات لغوية مما يطرح السؤال عن أي مدى تعبر هذه المصطلحات الصوفية عن التجربة الذوقية التي يعيشها الصوفي روحيا، وكيف له أن يلائم بين معناها الوجودي ومعناها الوجداني. بمعنى آخر نبحث عن كيفية فهم الدلالة في المصطلح الصوفي بين معناها اللغوي (المعجمي) وبين توظيفها ذوقيا، وعرفانيا، حسب الأحوال والمقامات؟

ممّا عرف عن شعراء الصوفية غموض لغتهم، فمنهم من ردّها إلى أنهم جعلوا المعاني حكرًا بينهم تقية، ومنهم من ردّها إلى عجزهم عن إيجاد لغة خاصة بهم. ومنهم من جعل المعاني أسرارًا بينهم وبين الله. ما يحتم على القارئ للمصطلح الصوفي آليات، ووسائط، تمكنه من قراءة المصطلحات قراءة تأويلية تبنى على معرفة بخصوصية التصوف، ذوقيا، وعرفانيا.

إنَّ التجربة الصوفية تجربة ذوقية ذاتية، وخبرة روحية ناتجة عن ممارسات عملية في الأذكار، وفي الصمت، والتأمل، والفناء، وهي رؤية عرفانية خاصة للوجود، تعجز اللغة عن الإحاطة بها في بعدها الإدراكي، فيستبدل الذي يعيش تجارب السلوك، والعرفان الصوفي اللغة الإشارية، والرمزية، من أجل التعبير عن مدارج السلوك، والمقامات، والأحوال، بعد أن يتحقق بشروط السفر، كما هو مقرر عند أصحاب الطريقة، وأعلام السلوك، بالهجرة عن عالم الشهادة، إلى عالم الكشف والملكوت.

يصف ابن عربي أحوال قلب العارف، وما يكتنزه من معرفةٍ وعلمٍ بالحقّ فيقول: "جعل الله في قلب العارف كنز العلم بالله، فشهد لله بما شهد به الحقّ لنفسه من أنّه لا إله إلّا الله، ونفى هذه المرتبة عن كلّ ما سواه" (ابن عربي، ج 2، ص 129، 1974).

تجدر الإشارة إلى ضرورة التفريق بين التصوف والعرفان الصوفي؛ فالتصوّف يُعَدُّ مرحلةً من مراحل العرفان: "فإنّه عندما يريد الإشارة إلى العرفان باعتباره رؤيةً، فإنّه يطلق عليه اسم العرفان وأصحابه هم العرفاء، وعندما يريد الإشارة إليه باعتباره تجربة عملٍ، فإنّه يطلق عليه اسم التصوّف وأصحابه هم المتصوّفة" (الحيدري، 2011، ص 9).

إنّ العرفان هو رتبة أعلى من التصوّف، فالتصوّف في حقيقته منهج وطريقة ناتجة عن العرفان، وحجة أصحاب هذا الرأي أنّ أرباب الصوفيّة يرون أنّ للعارف مقامًا أعلى من الصوفيّ.

يتمثل الفرق من ناحية المعنى بين هذين المصطلحيْن في أنَّ التصوّف منهجٌ وطريقةٌ تقوم على تزكية النفس، والإعراض عن مباهج الدنيا، والسير باتّجاه الكمال. أما العرفان فهو مذهبٌ فكريٌّ وفلسفيّ، متعالٍ وعميق، يسعى إلى معرفة الحقّ تبارك وتعالى ومعرفة حقائق الأمور وأسرار العلوم، وهذه الطريقة ليست منهج الفلاسفة والحكماء؛ بل هي طريقة أتباع منهج الإشراق والكشف والشهود (ابن سينا، 147؛ العواد، 1440هـ، ص 35– 36).

من أجل ذلك، يستلزم آليات، وأدوات لقراءة النص الصوفي، بالكشف عن مصطلحاته، وطرائق توظيفه، للتمكن من مقاربة النص الصوفي وتأويله.

تقوم مقاربة الخطاب الصوفي على ثلاث دعائم:

– أولها: النص الصوفي ذاته، حيث يتم استقراء لغة الكاتب، أو الشاعر، أو القائل، بمعرفة اللغة التي درج على توظيفها، والتي تشكل وهي مجتمعة مفاتيح موجهة للدلالات العامة لتلك النصوص.

– ثانيها: القارئ للنص الصوفي الذي ينبغي أن يكون متسلحا بمعرفة علمية وذوقية للتجربة الصوفية، علما، وسلوكا، وذوقًا.

– ثالثها: التفاعل مع النص قراءة، وتفسيرا، وتأويلا، في دائرة طبيعة المصطلحات، وطرائق توظيفها، في سياقاتها المختلفة، من أحوال ومقامات، كما هو الحال مع عبد الجبار بن محمد النفري، أو من منطلق عرفاني، كما هو الشأن بالنسبة إلى العارف محي الدين بن عربي.

يمثّل المصطلح في أي حقل معرفي أداةً لضبط المفاهيم وتحديد الدلالات، غير أنّ المصطلح الصوفي يخرج عن هذا الإطار الضابط إلى أفق أكثر انفتاحًا وتعقيدًا، عند كل من النفري، وابن عربي، إذ يتشكّل الخطاب لديهما في قلب تجربة روحية ذاتية، ونزعة عرفانية، تتجاوز الإدراك العقلي إلى المعايشة الوجدانية. والرؤية الوجودية. ومن هنا، يغدو المصطلح الصوفي مجالًا لتفاعل خاص بين اللغة والتجربة، حيث لا تكون الكلمة مجرد علامة دالّة، بل أثرًا من آثار الذوق، والرؤية الصوفية.

وقد تنبّه كبار المتصوّفة إلى خصوصية هذا المصطلح، ودقَّة دلالته، وتشعب مسالكه، كما عند الجنيد البغدادي، والحارث المحاسبي، والنِّفَّري، وابن عربي، الذين أكّدوا أنّ فهم الخطاب الصوفي يقتضي مشاركة في التجربة والرؤية معا، لفهم مصطلحات الخطاب عندهم.

– إشكالية البحث:

تكمن إشكالية هذا البحث في الكشف عن طبيعة المصطلح الصوفي بين الدلالة اللغوية والتجربة الروحية، من خلال تحديد طرائق توظيفه وآليات قراءته وتأويله. وتتمثل في سؤال مركزي: كيف يمكن فهم المصطلح الصوفي في ضوء تداخله بين المعجم والتجربة الذوقية، وما حدود العلاقة بين بنيته اللغوية وبنيته العرفانية؟

– فرضيات البحث:

ينطلق هذا البحث من جملة فرضيات:

1- المصطلح الصوفي ذو طبيعة مزدوجة تجمع بين البنية اللغوية والتجربة الذوقية.

2- تتولد الدلالة في الخطاب الصوفي من تفاعل المعجم مع التجربة، ولا تقتصر على أحدهما منفردًا.

الرقم التسلسلي للمعيار الدولي (ISSN): 1111-4932، الرقم (EISSN): 2352-9865

3- يمثل التأويل شرطًا أساسيا لفهم المصطلح الصوفي، بما يكشف عن طبيعة التجربة في أبعادها الروحية والعرفانية الوجودية.

- منهجية البحث:

يعتمد هذا البحث المنهج النقدي التحليلي لرصد خصائص المصطلح الصوفي وطرائق توظيفه، مع الاستناد إلى التحليل العرفاني الصوفي، والاستفادة من المنهج اللساني العرفاني الذي ظهر حديثًا على يد جورج لايكوف George Lakoff

ومارك جونسون Mark Johnson. ويقوم هذا المنهج على تصور متكامل يوازن بين البنية اللغوية للمصطلح وبين التجربة الذوقية التي تمنحه خصوصيته، وذلك عبر خطوات متسلسلة تضمن دقة التحليل ووضوح النتائج.

1- المصطلح الصّوفي:

- أولًا: المصطلح الصّوفي وحدود الدّلالة اللّغوية:

ينتمي المصطلح الصوفي في ظاهره إلى اللغة المشتركة، لكنه ينفصل عنها في عمقه الدلالي. فكلمات مثل: "الحال"، و"المقام"، و"الفناء"، و"البقاء"، تحمل في المعجم معاني عامة، لكنها في السياق الصوفي تُشحن بدلالات مخصوصة تتجاوز حدود التداول اللغوي العادي. فالحال مثلًا لا يُفهم بوصفه مجرد لحظة شعورية عابرة، بل يُنظر إليه كحالة وجدانية تتولد في النفس وتزول، وقد عرّفه بعضهم بأنه ذكر خفي، بينما صنّفه السراج الطوسي في كتابه *اللّمع* ضمن عشرة أحوال هي: المراقبة، والقرب، والمحبة، والخوف، والرجاء، والشوق والأنس، والاطمئنان، والمشاهدة، واليقين. ويبرز هذا التصنيف أن المصطلح الصوفي يتحدد عبر تقعيدات داخلية للتجربة، لا عبر المعجم وحده.

أما المقامات، مثل التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل، فهي لا تُكتسب باللحظة الوجدانية، بل عبر المجاهدات والعبادات، مما يوضح الفرق الدلالي بين الحال والمقام في الخطاب الصوفي.

وفيما يخص "الفناء"، فإنه عند جمهور المتصوفة لا يعني العدم، بل فناء الصفات البشرية في شهود الحق، بينما يتجاوز عند محيي الدين بن عربي هذا المعنى إلى أفق وجودي أعمق يرتبط بوحدة الوجود، حيث يصبح الفناء رؤية للعبد بقيام الله على كل الخلق.

يكشف هذا التحول الدلالي أن المصطلح الصوفي لا يقتصر على التعريف المعجمي، بل يكتسب دلالته الأساسية من سياق التجربة الذوقية التي تمنحه معاني جديدة تتجاوز حدود اللغة المشتركة، وتجعله أداة للتعبير عن تجربة روحية لا تُدرك إلا بالتأمل والممارسة. ومن هنا، يصبح المصطلح الصوفي بنية مفتوحة على تعدد الفهم والتأويل، ويؤكد أن اللغة في السياق الصوفي تتحول من مجرد وسيلة للتواصل إلى فضاء رمزي يعكس أعمق التجارب الإنسانية.

- ثانيًا: التجربة الصّوفية بوصفها مولّدًا للدّلالة:

تُعدّ التجربة الصوفية أحد أهم مصادر توليد المصطلح، حيث تنبثق الدلالة من المعايشة الروحية المباشرة أكثر مما تنبثق من التنظير العقلي أو التعريف المعجمي. فاللغة هنا تأتي لاحقة للتجربة، محاولةً احتواءها والتعبير عنها، لكنها لا تستطيع الإحاطة الكاملة بها نظرًا لطبيعتها الوجدانية والذوقية. ومن ثمّ، فإن المصطلح الصوفي يُولد من

الرقم التسلسلي للمعيار الدولي (ISSN): 1111-4932، الرقم (EISSN): 2352-9865

لحظة وجد حقيقية، ويتشكّل عبر التعبير الرمزي الذي يمنحه طاقة دلالية متجددة، ويظل مفتوحًا على تعدّد الفهم والتفسير والتأويل.

يبرز هذا التوليد الدلالي أن التجربة ليست مجرد خلفية للغة، بل هي عنصر فاعل في إعادة تشكيلها، حيث يتحول اللفظ من معنى مشترك إلى معنى مخصوص يرتبط بالمعايشة الروحية. وهكذا يصبح المصطلح الصوفي شاهدًا على التجربة، ومفتاحًا لولوج عالمها، بما يجعله بنية دلالية متحركة تتجاوز حدود اللغة الوضعية، وتؤكد أن المعنى في الخطاب الصوفي لا يُدرك إلا بالجمع بين الذوق والتأمل والتأويل.

– ثالثًا: الرمز والتحول الدلالي في بناء المصطلح:

- يعتمد الخطاب الصوفي على الرمز بوصفه وسيلة للتعبير عمّا يتعذّر قوله مباشرة، إذ يُتيح للمتصوفة نقل المعاني العميقة من مستوى التجربة الباطنية إلى مستوى اللغة الظاهرة. ويؤدّي هذا الاعتماد إلى تحوّل دلالي تنتقل فيه الكلمة من معناها الظاهر إلى معنى باطن، بحيث يصبح اللفظ حاملًا لمعانٍ متراكبة تتجاوز حدود الدلالة الوضعية.

- ومن أبرز آليات هذا التحول الدلالي:

- **الاستعارة:** حيث تتحوّل المعاني الروحية إلى صور حسية، بما يقرّب التجربة من المتلقي ويمنحها بعدًا إدراكيًا ملموسًا.

- **الإشارة:** وهي الإيحاء بمعنى غير مصرح به، يفتح المجال أمام تعدد القراءات ويؤكد على الطابع الإشاري للخطاب الصوفي.

- **التكثيف الدلالي:** ويتمثل في تحميل اللفظ أكثر من مستوى دلالي، بحيث يصبح المصطلح فضاءً مفتوحًا للتأويل، لا يقتصر على معنى واحد بل يتسع لطبقات متعددة من الفهم.

- هذا التفاعل بين الرمز والتحول الدلالي يجعل المصطلح الصوفي بنية مفتوحة، تتجاوز دلالات اللفظ في المستوى الإدراكي المباشر، ليعبر عن تجربة روحية متدرجة بحسب الحال والمقام، ويؤكد أن اللغة الصوفية ليست مجرد وسيلة وصفية، بل أداة رمزية لإعادة بناء المعنى في ضوء الولوج في عمق التجربة الروحية ممه يعرف عندهم. بالذوق فمن ذاق عرف.

– رابعًا: تأويل المصطلح الصوفي:

للمصطلح الصوفي خصوصية في البناء والدلالة، ومن أجل ذلك يصبح التأويل ضرورة لفهمه. فالقارئ لا يواجه نصًا مباشرًا، بل خطابًا رمزيًا يتطلّب تفكيكًا وإعادة بناء، للوقوف على بعض من دلالاته وطبيعة التجربة التي يعيشها الصوفي في سفره وحاله ومقامه. إنّ التأويل في هذا السياق لا يُعدّ مجرد عملية تفسيرية، بل هو ممارسة نقدية تكشف عن مستويات متعددة للمعنى، وتعيد وصل اللغة بالتجربة التي أنتجتها، بما يجعل المصطلح فضاءً مفتوحًا للتعدد والتأويل.

يفترض التأويل للخطاب الصوفي ولمصطلحاته قراءة تتوزع بين الظاهر والباطن:

- **المعنى الظاهر:** يمكن الوصول إليه من خلال دلالة اللفظ الوضعية والسياقات التي تسمح بها قوانين اللغة، وآليات التفسير التي تكشف عن الدلالات المباشرة.

الرقم التسلسلي للمعيار الدولي (ISSN): 1111-4932، الرقم (EISSN): 2352-9865

- **المعنى الباطن:** وهو العلم الذي يتجاوز طور العقل، حيث ينفتح المصطلح على أفق عرفاني أعمق لا يُدرك إلا بالذوق والمكاشفة، ويؤكد أن اللغة الصوفية ليست مجرد وسيلة للتواصل بل أداة رمزية لإعادة بناء التجربة الروحية، "فهو العلم الذي فوق طور العقل " (ابن سينا، 147).

– خامسًا: نحو فهم تكاملي للمصطلح الصوفي:

يتطلّب فهم المصطلح الصوفي الجمع بين التحليل اللغوي للمصطلح والمعرفة بطبيعة التجربة الصوفية، والانخراط في الأفق التأويلي، من منطلق يجمع بين الذوق والعرفان. فالمصطلح ليس مجرد وحدة لغوية جامدة، بل هو أثر لتجربة روحية حيّة، وشاهد على حال أو مقام، مما يجعله في حالة تحول دلالي دائم تبعًا لطبيعة التجربة أو الرؤية العرفانية التي تصوغه.

إن هذا الفهم التكاملي يقتضي النظر إلى المصطلح بوصفه نقطة التقاء بين اللغة والتجربة، حيث تتفاعل البنية اللفظية مع المعايشة الذوقية لتنتج دلالات جديدة تتجاوز حدود المعجم. ومن خلال هذا التفاعل، تتشكّل لغة صوفية خاصة تتسم بالرمزية والانفتاح والتعدد، وتفتح المجال أمام قراءات متجددة لا تنحصر في معنى واحد ولا تُختزل في تفسير أحادي.

وهكذا يصبح المصطلح الصوفي مجالًا خصبًا للدراسة، يكشف عن إمكانات اللغة في التعبير عن أعقد التجارب الإنسانية، ويؤكد أن فهمه لا يتحقق إلا عبر مقاربة تكاملية تجمع بين التحليل النقدي والتأويل الذوقي، وتعيد وصل النص الصوفي بجذره العرفاني العميق.

2- المصطلح الصّوفي بين الإشارة والرمز:

تقوم اللغة الصوفية بدرجة كبيرة على الرمز، وقد جعل ابن عربي الحروف رموزًا ذات بعد ميتافيزيقي يحتاج تأويلها إلى مراتب في الانتقال من معنى إلى آخر بحسب المقام الذي يصل إليه السالك. كما أنّها لغة إشاريّة، تتحول أثناء توظيفها إلى رموز ناجمة عن فعل التخيّل لعناصر الوجود. وهذه الرموز لا تُقرأ لذاتها، بل تُفهم في ضوء الحال أو المقام الذي يعيشه السالك. وترتكز هذه الرؤية على طبيعة اللغة نفسها، إذ تُعدّ لغة وجودية فاعلة ومتفاعلة، ناطقة وفي حركة دائبة؛ وقد ذهب ابن عربي إلى أنّه "«ما في الوجود صامت أصلًا» (ابن عربي، 1974، ج 3، ص 361).

فيما يلي نماذج تطبيقية تحليلية من نصوص عبد الجبار النفري ومحيي الدين بن عربي، من منظور عرفاني يركّز على تلازم التجربة والدلالة، وعلى كيفية توليد المعنى من داخل الذوق لا من خارجه. يمثّل النفري نموذج الكتابة الحدّية، حيث تقف اللغة عند تخوم العجز، فتكون إشارات ورموزًا تنشأ عن موقف ومخاطبات في حال الوجد والفناء. أما ابن عربي فيمثّل نموذج الكتابة النسقية، حيث تتحول اللغة إلى جهاز معرفي متكامل. وهما معًا يشكّلان قطبين متكاملين في تاريخ التجربة الصوفية والعرفان الإسلامي.

3- مفهوم مصطلح "العرفان" الصّوفي:

نعتمد في هذا البحث، في تحديد مفهوم "العرفان" على العلاقة التي تربط المعرفتين الصوفية والحسية؛ فكلاهما يتضمن جانبًا غير واعٍ. فالمعرفة الصوفية ذوقية، لا تتحقق عن طريق العقل ولا تُثبت بالاستدلال والبرهان، إذ يغيب الوعي والإدراك أثناء تلقي تلك المعرفة اللّدنية. أما المعرفة الحسية فهي مبرهنة ومثبتة بالاستدلال العقلي، لكنها

تحمل بدورها جانبًا غير واعٍ يتمثل في كيفية اشتغال الوظائف العليا للدماغ كالذكاء والذاكرة والإدراك واللغة، وهي وظائف تعمل آليًا دون وعي مباشر منا.

فاللغة عند ابن عربي تقوم على رؤية عرفانية ناجمة عن تجربة وجودية في بعديها العيني والغيبي في الوقت ذاته. إذ يرى أنّ الوجود العيني يتشكل من الماء والهواء والنار والتراب، وهي العناصر نفسها التي تشكل الوجود المتخيَّل، بإيجاد معادل موضوعي لرؤية الوجود القائمة على الكشف والذوق. ويقول ابن عربي عن البدن الذي يعدّه مرادفًا للأرض إنّ «أرض بدنك هي أرض الحقيقة الواسعة التي أمرك الحق أن تعبده فيها...»، مبرزًا أنّ الأرض ليست سوى البدن بما يحمله من قوى ومعانٍ، وأنها مجال للتفاعل بين الهوى والعقل، حيث يهاجر السالك من أرض الإنسانية إلى أرض العقل دون أن يخرج منها.

ويُشار هنا إلى أنّ البحث في دلالات المصطلح الصوفي سيتم من منطلقين: من جهة توظيفه عند الصوفية وأصحاب الطريقة، ومن جهة أخرى من منظور العرفانية الحديثة التي تشتغل على الدماغ واللغة والذكاء والمحيط، أي من زاوية الدراسة اللسانية العرفانية (cognitive sciences) فالكتابة الصوفية، شعرًا كانت أو نثرًا، ليست مجرد تعبير عن تجربة روحية، بل هي بنية رمزية تعمل وفق آليات الاستعارة والإشارة والنمذجة والتأطير المفهومي. وهذا يفتح الباب أمام فهم جديد لطبيعة النص الصوفي بوصفه نتيجة لتفاعل بين الذهن واللغة والثقافة.

إنّ الهدف من اعتماد الدراسة العرفانية هو البحث في كيفية تفكير الصوفي، وفي تفاعله مع ما يحيط به، حتى تكون الدراسة متكاملة بين الجانب غير المرئي (الروحي وآليات التفكير) والجانب المرئي (البيولوجي: الجسد والدماغ). ومن هنا، تصبح المصطلحات الصوفية نابعة من طبيعة التفاعل مع البيئة ومن طريقة التفكير في اللفظ الذي يعبّر عن المعنى الذي يرمز إليه الصوفي، في أسلوب نظمه وخصائص توظيفه. وهذا هو مسعى العرفانية اللسانية التي ترى أنّ الهدف الأساسي للعلوم العرفانية هو «فهم الإدراك، والتفكير، وعمل الذاكرة، وفهم اللغة، والتعلم، وظواهر ذهنية أخرى، وهو ما يجعل مجال البحث متنوعًا بشكل كبير» (جورج لايكوف ومارك جونسون، 2016، ص 18).

4- نماذج تطبيقية من الكتابة الصّوفية:

4-1- الكتابة عند النفري بين الممكن /اليقين، وغير الممكن/ المستحيل:

من منطلق العرفانية، يمكن للغة أن تنقل التجربة البشرية بشقيها الحسية (الواقعية) وغير الحسية (التجربة الصوفية الذوقية)، فتكشف بذلك عن جوانب العرفان الصوفي، وعن الرؤية الصوفية في أبعادها الوجودية. انطلاقًا من هذه الفرضية سندرس بعض النماذج من الكتابة عند النفري، وعلاقتها بالتجارب الروحية عنده، ممثلة في الوقفة، وفي المخاطبات، من أجل الكشف عن الرؤى الكامنة فيها، بدراسة طبيعتها، وعوالمها، وتحولاتها.

إنَّ الوقفة هي « تجربة مع المستحيل وإقامة فيه » (النفري، ص 9)، وبين جدليات الممكن والمستحيل تتحقق تجربة الكتابة عند النفري، حيث توصف بكونها « ألمًا في إخضاع هذا المستحيل لممكن اللغة» (النفري، ص 10). تكشف عن تجربة روحية خارج حدود الدلالة المتداولة في عالم الحس أو "السِّوى"، فتشير إلى ما يصعب الإشارة إليه، وتكشف عمّا لم يتم الكشف عنه من قبل، فتدلّ على تجربة روحية لا تنكشف إلا لمن تحرر من السِّوى، بل لمن أقام فيه.

الرقم التسلسلي للمعيار الدولي (ISSN): 1111-4932، الرقم (EISSN): 2352-9865

إنّ كتابة تجربة الوقفة/الرؤية عند النفري هي حالة روحية متطلعة إلى عالم الغيب/الملكوت، وسعيٌ في الوقت ذاته إلى الكشف عنه بلغة تنتمي إلى عالم الحس/الشهادة، ما يجعل تلك المحاولة/التجربة ضربًا من المستحيل، لأن النفري في لحظة الكتابة يكون في حالة فناء وسُكر، ونقل تلك الحالات التي هي من عالم الغيب، والإشارة إليها، يكون بوساطة اللغة التي تنتمي إلى عالم الشهادة.

إنّ اللغة وعالم الشهادة مترادفان، فاللغة تعبر عنه وتحيل إليه في الوقت ذاته، وعالم الشهادة كله سوى الله. من أجل ذلك، إنّ اللغة هي السِّوى في أجلى معانيها، وهذا ما يشير إليه النفري في قوله: "السِّوى كله حرف والحرف كله سوى" (ابن عربي، ج 2، ص 9)؛ هذه الرؤية تقف حاجزًا دون التعبير عن تجربة السالك، وتحول دون الوصول إلى الوقفة، وتحجبه عن الرؤية، فالحرف والسوى حجاب. لذلك قال: «الحرف حجاب، وكلية الحرف حجاب، وفرعية الحرف حجاب (النفري، ص 11)، ولكي يتحقق النفري بمقام الرؤية، وجب عليه التخلص من الحجاب/الحرف. وقال لي: «لا تقف في رؤيتي حتى تخرج من الحرف والمحروف» (النفري، ص 11).

إنّ الانفصال عن السِّوى في رؤية النفري يعني التحرر من قيود اللغة، بداية من الحرف؛ فنفي الحرف يعني بالضرورة نفيًا للغة في ذاتها وفي جميع مستوياتها. لذلك يقول، في مقام المعرفة مثلًا«: لا يعرفني الحرف، ولا ما في الحرف، ولا ما من الحرف، ولا ما يدلّ عليه الحرف» (النفري، ص 9). فالحرف السِّوى لا يحيط علمًا بالحق جلّ وعلا.

لذلك، إنّ الكتابة عند النفري ليست في الحقيقة سوى رموز وإشارات رصدت مواقفه ومخاطباته. يشير إلى ذلك في موقف: «ما لا يقال» (النفري، ص 11). وقال لي «لا تزال تكتب ما دمت تحسب، فإذا لم تحسب لم تكتب» (النفري، ص 11). تحيل هذه العبارة إلى الطريق الواجب سلوكه من أجل الكتابة عن عالم الغيب بحرف من عالم الحس، إذ ينبغي للسالك في طريق الكتابة أن يدع وراءه الحساب/العقل، ويتخلى عن كل ما هو سوى الله، حتى يتمكّن من الإشارة إلى أنوار الله.

– نموذج من كتابات عبد الجبار النفري:

قال النفَّري في كتاب المخاطبات: «أوقفني في البحر، فرأيت السفن تغرق والألواح تسلم. ثم غرقت الألواح، وقال لي: لا يَسلم مَن ركب. وقال لي: لا يسلم مَن يركب» (النفري، ص 9). لا يصف النّص حدثًا واقعيًا، بل يعبّر عن موقف كشف؛ ففعل "أوقفني" يدلّ على أنّ المتكلم ليس فاعلًا بل مفعول به للتجربة، أي أنّ التجربة تُعطى له ولا يكتسبها بجهده. يرمز البحر إلى الحقيقة المطلقة أو بحر الوجود، وترمز السفن إلى الوسائط العقلية أو المعارف النظامية، وترمز الألواح إلى الوسائط اللغوية في أبعادها الحسية. غير أن المفارقة في "السفن تغرق والألواح تسلم" تُنتج دلالة عميقة: ما هو معقّد (السفن) يهلك. وما هو بسيط (الألواح) ينجو. وهذا يعكس مبدأ صوفيًا: الخلاص في التجرّد عن السِّوى لا في التراكم المعرفي الناجم عن الوسيط بين عالمي الغيب والشهادة، وهي الحرف/اللغة. وبذلك، لا يُفهم المعنى هنا حرفيًا، بل يُستخرج عبر التأويل؛ فالنصّ يعلّم أنّ الحقيقة لا تُنال بالأدوات القرائية المباشرة، بل بالاعتماد على جملة من المنطلقات، وهي:

1- المصطلح الصوفي لا يمكن أن يفهم خارج التجربة.

2- واللغة الصوفية تقوم على الرمز والعدول عن كل ما هو في دائرة السِّوى.

3- ولا يفهم المصطلح غير التجربة.

الرقم التسلسلي للمعيار الدولي (ISSN): 1111-4932، الرقم (EISSN): 2352-9865

4- والكشف عن المعنى ينتج عبر التأويل.

5- كما أن هناك توترًا دائمًا بين اتساع التجربة، واللغة/ضيق العبارة.

بناءً على ذلك، يمكن أن نلامس دلالة العبارة للنفري من منظور اللسانيات العرفانية.

– ثانيًا: نموذج تطبيقي من شعر ابن عربي:

بداية، إنّ دراسة شعر ابن عربي يتمّ بوسائط رمزية أربعة، وهي: الماء، والنّار، والهواء، والتراب؛ هذه الوسائط هي مسارات رمزية تحيل إلى حركات وتحولات تنتمي إلى حقل البدن، وهي حركات أفقية، تشير إلى حركة البدن أثناء فعل السفر عن حدود الحس/ البدن، من أجل التحقق بالرؤيا، فتتحول بذلك العناصر الترابية إلى وسائط رمزية، تتجلى في كتابة صوفية، تكشف عن رؤيا للوجود، من خلال صور استعارية متخيلة، وفق نظام متناغم قائم على التناظر، يتمّ الكشف عنه من منطلق التأويل القائم على الخيال. يعدّ رمز المرأة في دائرة العناصر المشكّلة لأرض البدن وسيطًا مهمًّا في الكشف عن الحقائق الوجودية، في مراتبها المختلفة، وهي من خلال العناصر المشكلة لها، من ماء، ونار، وهواء، وتراب، تكشف عن عوالم الغيب، وتحيل إليه، وتحقق الاتصال به، بل هي سرّ الخلق، وسرّ الوجود فيه. ففي رمز الماء مثلًا يقول (من الرمل): (ابن عربي، ص 9).

رقم الغيم على ردمِ الغمامِ سنا البرق طرازا مُذَهَّبا

فجرت أدمعها منها على صحنِ خَدَّيها فأذكت لهبا

يقوم البيتان على شبكة من الرموز المتداخلة، حيث تتحول اللّغة من دلالتها المباشرة إلى دلالات إيحائية:

النّار: لا تُفهم كعنصر مادي، بل كرمز للطاقة الداخلية (الشوق/المعرفة/الاحتراق الروحي).

والقلب: ليس عضوًا جسديًا، بل وعاء للمعنى الباطني، ومستودع التجربة الوجدانية.

والمرأة/ المخاطَبة: تؤدي وظيفة الوسيط الرمزي، فهي صورة للرسالة أو "الواسطة" بين العاشق والمعشوق.

الإبلاغ/ التبليغ: رمز لعملية الانتقال من الباطن إلى الظاهر، أو من التجربة الذاتية إلى التّعبير اللّغوي.

وبذلك يتأسّس المعنى عبر مفارقة رمزية دقيقة، وهي:

ظاهر اللّغة: هي طلب تبليغ رسالة إلى "آخر".

وباطنه: الذّات، ذات ابن عربي التي تخاطب ذاتها عبر وسيط رمزي.

ويعني ذلك أنّ المرسِل هو ذاته المرسَل إليه في البنية الرمزية للنص، وهو ذاته مصدر النار، وهذا يفتح أفق التأويل نحو وحدة داخلية لا تنفصل فيها الذوات.

بناء على ذلك، تنشأ مفارقة الاحتراق، إذ إنّ النّار هنا تحمل ازدواجية دلالية:

نار تحرق: ألم/ فراق.

ونار تضيء: معرفة/ كشف.

فالبيت يؤسس لما يمكن تسميته: جدل الألم والمعرفة، حيث يصبح الاحتراق شرطًا للرؤية.

– ثانيًا: التحليل العرفاني للبيتين:

في الرؤيا العرفانية لابن عربي، لا يمكن فصل الحب عن المعرفة؛ فـ "النار" هي تجلٍّ من تجليات الحق في القلب.

فالنّار = التجلّي الإلهي.

والقلب = محلّ القبول (القابلية).

والاحتراق = الفناء في المحبوب.

وهذا يعكس رؤيا مركزيَّة في فكر ابن عربي.

المرأة (أو المخاطَبة) ليست شخصية واقعية فقط، بل تنتمي إلى ما يسميه ابن عربي: عالم الخيال (البرزخ): وهو المجال الذي تتجسد فيه المعاني الروحية في صور حسية.

الوسيط = خيال مُجسِّد للمعنى.

الخطاب = عبور من الغيب إلى الشهادة، ومن الشوق إلى الكشف:

فالنار تبدأ شوقًا، لكنها تنتهي كشفًا، والاحتراق يطهّر القلب، والقلب المصقول يصبح مرآة للتجلي، وهنا يتحول الألم إلى معرفة، والفقد إلى حضور.

رمزيًا: النّص يبني شبكة من الاستعارات (النّار/ القلب/ الوسيط) ليعبّر عن تجربة داخلية مركبة.

وأمّا عرفانيًا، فإنّ النّص يكشف عن وحدة الوجود الشعورية، حيث الشّوق صادر عن الحق ومؤول إليه، عبر وساطة الخيال.

- ثالثًا: الرّمز الصّوفي عند ابن الفارض:

نجد الرّمز الصوفي عند ابن الفارض في تائيته المشهورة (المسماة بنظم السلوك) مطلعها (من طويل) (ابن الفارض، ص 9):

سَقَتْنِي حُمَيَّا الحُبِّ رَاحَةُ مُقْلَتِي وَكَأْسِي مُحَيَّا مَنْ عَنِ الحُسْنِ جَلَّتِ

يظهر من عنوان القصيدة كأنَّها غزلية، وأمَّا المطلع فكأنَّه مقدِّمة خمرية كانت من لبّ غموض المصطلح الصّوفي فهو لا يقصد المرأة، ولا يقصد الخمر المحرَّمة، بل يرمز من خلالها إلى حالٍ، تكون في مجالس الذّكر. والرَّمز في الشّعر الصّوفي يبتعد في عالم الكنايات.

- التّحليل الرّمزي الصّوفي للبيت الشّعري:

المعنى الظاهري للبيت في الفعل: "سقتني" يدلّ على إعطاء الشّراب.

أمّا المعنى المقصود بالرّمز الصّوفي: حميا الحب: حرارة الحب.

راحة مقلتي: سقتني راحة إنسان شراب المحبة، والحال هنا أنّ كأس الشراب يعبّر عن الّذي تجلّى من حسن المحبوب.

وكأسي محيا من عن الحسن جلّت: الكأس هو وجه من تنزّه عن الجمال الظاهر.

- تأويل الرّموز:

- إنّ الخمرة (حميا الحب) في رؤية ابن الفارض ليست خمرة حسية، بل تدل على المعرفة الذوقية.
- لفظة "الحميا" تدل على الشدة، وبذلك، فإنّ طبيعة المعرفة هي معرفة حارقة مُغيِّبة للعقل.
- السّاقي (راحة مقلتي): ليس شخصًا عاديًا، إنّما هو المحبوب الإلهي، والتجلي الذي يروّح القلب، والمقلة/العين ليست في دلالتها الحسية، وإنّما هي أداة كشف/البصيرة.
- الكأس/المحيّا (الوجه): تحوّل رمزيٌّ، فالكأس هو وجه المحبوب، وهي وسيلة المعرفة، والمعرفة ذاتها. وسيلة المعرفة هي ذاتها موضوع المعرفة.

وهذا من صميم التجربة الصوفية، إذ لا وساطة بين العارف والمعروف: الرؤية = المشروب = السّاقي. ومن هنا يتضح أنّ هذه الألفاظ ليست مصطلحات تقنية بالمعنى الدقيق، بل رموز صوفية تعمل إلى جانب الاستعارة والإشارة في بناء شبكة دلالية متكاملة؛ فالمصطلح يُعاد شحنه دلاليًا في السياق الصوفي، والرمز يفتح أفقًا باطنيًا عبر صورة غير مباشرة، والاستعارة تجسّد المعنى الروحي في صورة حسية، والإشارة تلمّح إلى ما يتجاوز العبارة وتفتح المجال للتأويل.

- التحليل العرفاني اللّساني:

- الاستعارات المفهومية الأساسية:

تقوم التجربة الروحية على فعل الشرب، والسكر.

التجربة الروحية = شرب / سُكر

المجال المصدر هو الشرب / الخمر.

المجال الهدف هو العشق الإلهي.

أما الخريطة التّصورية التي يمكن رصدها في تجربة الشاعر، ورصدها من خلال فعل القراءة والتأويل، والتفاعل: الشرب يحيل إلى التلقي.

والسّكر يؤدي إلى الغيبة عن الوعي.

وأثر النشوة إشارة إلى مقام التجلّي والكشف.

إنَّ استعارة لفظة "مقلتي" (العين) ليست مجرد عضو في بعده الحسّي، وإنّما تدلّ على معنى الإدراك والإبصار، في بعده الرّوحي.

– واستعارة الذات، إنّما هي إحالة إلى التلقي/ الوعاء، الناجم عن فعل السّقي، هذا الوعاء في تأويله إنّما هو القلب، وبذلك تعمل الاستعارة، في الإحالة تلقي المعرفة اللادنية.

تستعير اللّغة الصوفية من لغة تنتمي إلى عالم الحسّ، لكونها عاجزة عن التّعبير عن المطلق، لأنّ اللّغة الصوفية لغة عرفانية، تتشكّل بوساطة استعارات، تكشف عن تجربة روحية، ووحدة شهودية للوجود، حسب حال السالك في تجاربه، ومقاماته.

خاتمــة:

يمثّل كلّ من النفري وابن عربي وابن الفارض أقطابًا بارزين في تشكّل اللغة الصوفية الإسلامية، إذ تتباين طرائقهم في التعبير عن التجربة الروحية، وتتكامل في الوقت ذاته لتشكيل مشهد عرفاني متنوع. فالنفري يميل إلى الخطاب الإشاري المكثّف، القائم على الومضات الكشفية والعبارات القصيرة التي تُحيل إلى لحظة الوقفة وما يتولد عنها من مخاطبة مباشرة مع الحق. أما ابن عربي فيبني نصّه على نسق تأويلي موسوعي، ممتدّ، يربط بين عناصر متفاعلة من الطبيعة والإنسان والوجود، ليكشف عن حقيقة واحدة هي الله جلّ وعلا، في رؤية شمولية تتسم بالتركيب والتفصيل. وأما ابن الفارض، فيعبّر في شعره العرفاني عن أحواله ومقاماته وشهوده، موظفًا شبكة من الرموز والاستعارات التي تنقل التجربة الروحية إلى صور حسية متخيلة، تجعل من النص الشعري فضاءً للتأويل والانفعال. ومن هنا تنشأ المفارقة بين هذه الأقطاب الثلاثة:

- نص النفري نص لحظي، مرتبط بالوقفة، ومتحقق بالمخاطبة المباشرة.

الرقم التسلسلي للمعيار الدولي (ISSN): 1111-4932، الرقم (EISSN): 2352-9865

- نص ابن عربي نسقي عرفاني، ممتدّ، يشتغل على بناء موسوعي يربط بين المعارف والرموز في رؤية توحيدية.
- نص ابن الفارض شعري وجداني، يترجم التجربة الصوفية إلى استعارات ورموز، ويكشف عن جدل الألم والمعرفة في سياق شهودي.

قائمة المصادر والمراجع:

1- المسدي، عبد السّلام. *قاموس اللسانيات مع مقدّمة في علم المصطلح*. تونس: الدار العربية للكتاب، 1984، ص 12.

2- البستاني، عبد الله. *معجم وسيط اللغة العربية*. بيروت: مكتبة لبنان، 1980، ص 348.

3- ابن عربي، محيي الدين. *الفتوحات المكيّة*. بيروت: دار صادر، لا تاريخ، ج 2، ص 129.

4- الحيدري، كمال. *العرفان الشيعي؛ رؤية في مرتكزاته النظريّة ومسالكه العمليّة*. قم: مؤسسة الإمام الجواد (ع) للفكر والثقافة، 2011، ط 1، ص 9.

5- ابن سينا. *الإشارات والتنبيهات*. شرح نصير الدين الطوسي، تحقيق سليمان دنيا. بيروت: مؤسسة النعمان للطباعة والتوزيع، لا تاريخ، ص 147.

6- العواد، د. *نظرية الظاهر والباطن عند الصوفية* مجلة العلوم الشرعية، العدد 51، 1440هـ، ص 35-36.

7- ابن عربي. *الفتوحات المكيّة* تحقيق عثمان يحيى. القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1974، ج 3، ص 361.

8- لايكوف، جورج، وجونسون، مارك. *الفلسفة في الجسد (الذهن المتجسد وتحديه للفكر الغربي)*. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2016، ص 18.

9- ابن عربي. *رسائل ابن عربي*. تقديم محمود محمود الغراب، ضبط محمد شهاب الدين. بيروت: دار صادر، ط 1، 1979، ص 51.

10- ابن الفارض ديوان ابن الفارض. تحقيق ودراسة عبد الخالق محمود. القاهرة: عين للدّراسات والبحوث الاجتماعية، د.ت، ص 221.